

دفاعه عن اللفظ يعود إلى ما كان بين العنصرين العربي والاعجمي من صراع ، فقد تشييع الاعاجم للمعنى تشييعاً كبيراً واتجه العرب إلى اللفظ يعظمونه تعظيماً . وقد عرف الجاحظ بكرهه للشعوبية ودفاعه عن العرب فأولى اللفظ عنايته ليسكت الخصوم مع انه يروي ان بعضهم لا يحفل الا بالمعنى كأبي عمرو والشيباني الذي يرى ان المعنى متى كان رائعاً حسناً ظل كذلك في أية عبارة وضع فيها ،  
فالبيتان :

لا تحسبن الموت موت البلى      فانما الموت سؤال الرجال  
كلاهما موت ولكن ذا      أفضع من ذاك لذل السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين أن ليست عليهما مسحة ادبية سوى الوزن ، وعابه الجاحظ ورأى انه مسرف في تقديرهما وقال : « وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجاداته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ان كلف رجلاً حتى أحضره دواة وقرطاساً حتى كتبهما له . وأنا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً ابداً ولولا ان ادخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً ابداً » (١) . والحق مع الجاحظ لان هذين البيتين وان حفلا بالمعنى ليسا من الشعر الصافي الرقيق .

ولعل هذه القصة تجعل الباحث يؤمن بأن الجاحظ يجمع بين اللفظ والمعنى أو انه من اصحاب الصياغة القائمة على هذين الركنين ، ومن هنا لا نؤمن بما ذهب اليه بعضهم من انه من أنصار اللفظ وحده ولأجله خاض عبد القاهر الجرجاني غمار البحث وتمسك بالمعنى وأقام نظرية النظم .

واذا كان الجاحظ كما يقول بعض النقاد فصل بين اللفظ والمعنى حينما جعل للالفاظ جهابذة وللمعاني نقاداً بقوله : « قال بعض جهابذة الالفاظ ونقاد المعاني » (٢) ، فان ابن قتيبة ( — ٢٧٦ هـ ) قسم الشعر إلى أربعة اضرب :

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦ ، وينظر قضايا النقد الأدبي والبلاغة ص ٢٧٢ .